

الأمثل في تفسير كتاب المنزل

[46] ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم). ونظراً لأن "أفضتم" مشتقة من الإفاضة، بمعنى خروج الماء بكثرة، واستُعْمِلت في حالات أُخْرَى للتوغل في الماء، نَدَجَ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ شَائِعَةَ الْإِتِهَامِ تَوَسَّعَتْ بِشَكْلِ شَمَلَتِ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلَ مَا فِي مَرْجِيئِهَا الْأَصْلِيِّينَ (المنافقين). وتبيِّن الآيَةُ التَّالِيَةَ - فِي الْحَقِيقَةِ - الْبَحْثَ السَّابِقَ. وَهُوَ كَيْفَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ نَتِجَةً تَسَاهَلَهُمْ؟ فَتَقُولُ (إِذْ تَلْقَوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ) أَيْ تَذَكَّرُوا كَيْفَ رَحِبْتُمْ بِهَذِهِ التَّهْمَةِ الْبَاطِلَةِ فَتَنَاقَلْتُمُوهَا (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَحْسِبُونَهُ هِينًا هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ). وَتَشِيرُ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنْ ذُنُوبِهِمُ الْعَظِيمَةِ فِي هَذَا الْمَجَالِ: الْأَوَّلُ: تَقَبُّبُ الشَّائِعَةِ: اسْتِقْبَالُهَا وَتَنَاقُلُهَا. الثَّانِي: نَشْرُ الشَّائِعَةِ دُونَ أَيِّ تَحْقِيقٍ أَوْ عِلْمٍ بِصَدَقِهَا. الثَّلَاثُ: اسْتِصْغَارُ الشَّائِعَةِ وَاعْتِبَارُهَا وَسِيلَةً لِلَّهِوِ وَقِضَاءِ الْوَقْتِ، فِي وَقْتٍ تَمَسَّ فِيهِ كَيْانُ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ وَشَرْفِهِ، إِضَافَةً إِلَى مَسَاسِهَا بِشَرْفِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ. وَمِمَّا يَلْفَتُ النَّظْرَ أَنَّ الْآيَةَ اسْتَعْمَلَتْ تَعْبِيرَ "بِأَلْسِنَتِكُمْ" تَارَةً أُخْرَى تَعْبِيرَ "بِأَفْوَاهِكُمْ" عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ جَمِيعَ الْكَلَامِ يَصْدُرُ عَنْ طَرِيقِ الْفَمِ وَاللِّسَانِ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّكُمْ لَمْ تَطْلُبُوا الدَّلِيلَ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي تَقْبَلْتُمُوهُ، وَلَا تَمْلِكُونَ دَلِيلًا يُسَوِّغُ لَكُمْ نَشْرَهُ، وَالْأَمْرَ الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيكُمْ هُوَ لِقْلَقَةُ لِسَانِكُمْ وَحَرَكَاتُ أَفْوَاهِكُمْ. وَنَظَرًا لِهَوْلِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي اسْتِصْغَرَهَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، أَكْدَتِهَا الْآيَةُ ثَانِيَةً، فَانْبَتَتْ مَرَّةً أُخْرَى وَلِذَلِكَ بِعِبَارَاتِهَا إِذْ قَالَتْ (وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قَلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ).